سلسلة رسائل الفضيلة (١١)

شرح حديث سيد الاستغفار

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة

سلسلة رسائل الفضيلة

(١١)

شرح حديث سيد الاستغفار

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
(1431هـ ـ 2010م)

رقم الإيداع: 3002 ـ 2010

ردمك: 0 ـ 29 ـ 866 ـ 9947 ـ 978

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

العنوان: حي باحة (03)، رقم (28) الليدو ـ المحمدية ـ الجزائر
هاتف وفاكس: 021519463

التوزيع: 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني: darelfadhila@maktoob.com

موقعنا على الشبكة العنكبوتية: www.rayatalislah.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد: إنَّ موضوعَ الاستغفار؛ طلب مغفرة الذُّنوب، من أهمِّ الموضوعات الَّتي ينبغي أن يعتنيَ بها المسلم في حياته، وأن يُوليها اهتمامَه الكبير وعنايتَه الفائقة، وقد جاء في كتاب الله ـ جلَّ وعلا ـ وسنَّة رسوله ﷺ نصوصٌ كثيرةٌ في الحثِّ على الاستغفار والأمرِ به، وبيانِ فضله وفضلِ أهلِه الملازمينَ له.

منها: قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ]؛ وهذه الآية كما يقول بعض السَّلفِ: «أرجى آية في كتاب الله»[١].

ويقول الله تعالى في الحثِّ على الاستغفار، وبيانِ فضلِه وثمراته في الدُّنيا والآخرة، فيما ذكره عن نوح ﷺ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [سُورَةُ نُوحٍ] فهذه الآيات العظيمة اشتمَلت على فوائدَ جمَّةٍ، ومنافعَ عظيمة للمستَغفرينَ والمُلازمين للإستغفار.

ويُؤْثَرُ عن الحسن البصري رحمه الله «أنّ رجلا شكى إليه الجدب، فقال: استغفر الله، وشكى إليه آخر الفقر فقال: استغفر الله، وشكى إليه آخر جفاف بستانه فقال: استغفر

---

(١) يُعزى لعليٍّ وابن مسعود رضي الله عنهما، انظر «التسهيل» لابن جزي (١/ ١٨٥٣)، وعزاه القُرطبي (٨/ ٣٤٩) لابن عمر رضي الله عنهما.

الله، وشكى إليه آخر عدم الولد فقال: استغفر الله ثم تلا عليهم هذه الآية»[1].

فهذه من ثمرات الاستغفار ومن فوائده في الدُّنيا.

أمَّا في الآخرة: فإنَّ فوائدَ الاستغفار عظيمة ومنافعه كثيرة. ويكفي ذلك قول النبيّ ﷺ: « طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً»[2].

وفي السُّنَّة نصوصٌ كثيرةٌ عنِ النَّبيِّ ﷺ في الحثِّ على الاستغفار وبيانِ فضله:

منها: حديث أنس بنِ مالك رضي الله عنه الَّذي رواه التِّرمذي وغيره، يقول: قال رسول الله ﷺ: «**قالَ الله تعَالى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي**

---

(١) ذكره الحافظ في «فتح الباري» (١١/ ٩٨).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨١٨) وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٢٥).

غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»[1].

والشَّاهد من الحديث في فضل الاستغفار الجملة الثَّانية منه، وهي قوله تعالى: «**يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ**»؛ عَنَانُ السَّماء، قيل: هو السَّحاب، وقيل: هو ما يبلغُ إليه البصر منها، «**ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي**» فلو بَلَغَت الذُّنوب كثرةً، وتنوَّعت وتعدَّدَت، وتاب منها العبدُ واستغفر اللهَ ـ جلَّ وعلا ـ غفرَ اللهُ له.

ومنها: مارواه البخاري[2] من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه يقول النَّبيُّ ﷺ: «**وَاللهِ، إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»؛ غَفَرَ اللهُ له ﷺ ما تقدَّم من ذنبه وما

---

(١) «جامع الترمذي» (٣٥٤٠)، والدَّارمي (٢٧٨٨)، وحسَّنه الألباني في «الصَّحيحة» (١٢٧).

(٢) البخاري (٦٣٠٧).

تأخَّر وكان يستَغفر الله في اليوم أكثر من مائة مرَّة، بل كما يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم في المجْلِسِ الوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: **رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»(١) يُلازم الاستغفار ملازمة عظيمة.

ومنها: ما رواه مسلم في «صحيحه»(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا، لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**».

فالله ـ جلَّ وعلا ـ يُحِبُّ الاستغفار ويُحِبُّ المستَغفرين، ومن أسمائه الحُسنى ـ جلَّ وعلا ـ «العفوُّ والغَفورُ والغفَّارُ»، واللهُ ـ جلَّ وعلا ـ يحبُّ منَّا أن ندعوَه بأسمائه، وأن نتعبَّدَه بمُقتضَى أسمائِه، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٦)، وابن ماجه (٣٨١٤)، والترمذي (٣٤٣٤)، والنَّسائي في «الكبرى» (١٠٢٩٢)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) برقم (٤٩٣٦).

وكما في الحديث المخرَّج في «الصَّحيحين»[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِئَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»، وإحصاء هذه الأسماء ليس كما يفعله بعضُ النَّاس؛ يأخذ هذه الأسماء في ورقةٍ ويتلوها؛ وإنَّما إحصاء الأسماء ثلاث مراتب، كما بيَّن ذلك أهل العلم:

المرتبة الأولى: حفظها.

والمرتبة الثَّانية: فهم معناها.

والمرتبة الثَّالثة: دعاء الله بها والعمل بما تقتَضيه.

فعلى سبيل المثال نحفظ أنَّ من أسماء الله «التَّوَّاب» ونَعُدُّ هذا من أسمائه ـ سبحانه وتعالى ـ ثمَّ نَفهَمُ معنى هذا الاسم، وهو أنَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ يقبل التَّوبة من عباده، ويوفِّقُ عباده للتَّوبة، وأنَّه أهلُ المغفرة ـ سبحانه وتعالى ـ ، نفهم

(١) البخاري (٢٧٣٦، ٦٤١٠، ٧٣٩٢)، ومسلم (٤٨٣٦).

معنى الاسم ثمَّ نعمل بما يقتضيه، فنتوب إلى الله من جميع الذُّنوب، وهكذا سائر أسماء الله الحسنى، نحفظُها ونفهمُها فهمًا صحيحًا، بعيدًا عنِ الفُهومِ المنحرِفَة المُعْوَجَّة الَّتي تُؤَوِّل الصِّفات أو تُعطِّلُها، أو تنفي مدلولها الَّذي أراده الله وأراده رسولُه ﷺ، فنفهمُها بعيدًا عن هذه المناهج الفاسدة، بل نفهمها على منهج سلف الأُمَّة، فـ«الغَفُور والغفَّار والعَفُوُّ» هذه من أسماء الله الحسنى، ومقتضى ذلك أن نُلازِم الاستغفار، وأن نُكْثِرَ من التَّوبة والإنابة إلى الله سبحانه وتعالى، فالله غفورٌ ليس لكلِّ أحد، ولكنْ لمنْ أتى بأسباب المغفرة، وتعرَّضَ لمغفرة الله ـ جلَّ وعلا ـ فالله غفورٌ له، ولهذا قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاءِ: ٤٨]، فمغفرة الله ينالُها أهلُها الَّذين يَتَعَرَّضُونَ لها ويبذُلون أسبابَها.

ومِنْ أجمع النُّصوص لأَسباب مغفرة الذُّنوب قولُ الله تعالى في سورة طه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ

ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [سُورَةُ طه]، فذكر ضوابط تُنال بها مغفرة الله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ بالإقلاع عن الذنوب والنّدم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها.

﴿وَءَامَنَ﴾: آمنَ بالله وملائكته وكُتبِه ورُسُله، وبجميع ما أمره سبحانه أن يؤمن به.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾: أتى بالأعمال الصَّالحة، فأقبل على فرائض الإسلام من صلاة وصيام، وعلى ذِكرِ الله، وخشيتِه ومراقبتِه، وعلى الأعمال الصَّالحة القلبيَّة والظَّاهرة.

﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾: استقامَ على ذلك ولم يَنكُث ولم يَرْجِع، استمر على ذلك إلى أن يموت، فمَن كان كذلك غفر الله له ذنبَه وستَرَ عَيْبَهُ، وكان ممَّن ينالُ مغفرةَ الله ـ جلَّ وعلا ـ.

وقد جاء أنَّ التَّوبة تَجُبُّ ما قَبلَها، أي تَمسح ما قبلها منَ الذُّنوب، وليس هناك عمل تُغفَر به الذُّنوبُ كلُّها غير التَّوبة، فالَّذي يتوب إلى الله من ذنوبِه يغفر الله له ذنوبَه وإنْ

كانت مثلَ زبدِ البحرِ، فالله يغفرُها وإن كانت ما كانت كَثْرَةً، كما قال تعالى في الآية المتقدِّمة: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: ٥٣]، مَهْمَا كانت بما فيها الشِّرك يغفرُه الله، فالله يغفرُ للمذْنِبينَ مَهْمَا كانت ذنوبهم ومَهْمَا تعدَّدَت، إذا تابوا إلى الله ـ جلَّ وعلا ـ.

فالاستغفار له شأن عظيم ومكانة عالية، فهو كما بيّن شيخ الإسلام «يُخرج العبدَ من الفعلِ المكروه إلى الفِعلِ المحبوبِ، ومن العمل الناقصِ إلى العمل التامِّ، ويرفعُ العبدَ من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل، فإنَّ العابدَ لله، والعارفَ بالله في كلِّ يوم، بل في كلِّ ساعة، بل في كلِّ لحظة يزدادُ علماً بالله وبصيرةً في دينه وعبوديَّتِه، بحيث يجدُ ذلك في طعامه وشرابه ونومِه ويَقَظتِه وقولِه وفعلِه، ويرى تقصيرَه في حضورِ قلبِه في المقامات العالية وإعطائِها حقّها، فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، بل هو

مضطَّرٌ إليه دائماً في الأقوال والأحوال، في الغوائب والمشاهد؛ لِما فيه من المصالحِ وجلب الخيرات ودفعِ المضرَّات، وطلب الزيادة في القوة في الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الإيمانية »[1].

وفي هذه الرِّسالة بيان صيغةٍ عظيمةٍ من صِيَغِ الاستغفار جاءت في سنَّةِ النَّبيِّ الكريم ﷺ، بل هي كما ذكر أهلُ العلم أفضلُ صيغ الاستغفار وأكملُها، ولهذا ينبغي أن نعتنيَ بحفظ هذه الصِّيغة وفهمِها وضبطِها والعملِ بها.

فعن شدَّادِ بنِ أَوْس رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ العَبْدُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ**

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ٦٩٦).

بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»؛ يقول النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهْوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»[(١)] جاء في بعض الرِّوايَاتِ «**دَخَلَ الجَنَّةَ**»[(٢)]، وجاء في رواية ثالثة «**إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ**»[(٣)].

فيقال هذا الدُّعاء في الصَّباح وفي المساء، ولهذا عدَّ أهل العلم هذا الحديث من عمل اليوم واللَّيلة أي من أذكار الصَّباح والمساء، فتقولها إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ، فمَن قالها ومات من يومِه قبل أن يمسيَ دخل الجنَّة، ومن قالها من ليله ومات قبل أن يصبح دخل الجنَّة، ووجبت له.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦، ٦٣٢٣).

(٢) وهي رواية البخاري برقم (٦٣٢٣).

(٣) رواه الترمذي (٣٣٩٣).

وهذا الحديث العظيم خرَّجه البخاريُّ في «صحيحه»، في كتاب الدَّعوات عَنْوَنَ لهذا الحديث فقال: (باب أفضل الاستغفار)، وخرَّجه أيضًا في موضع ثانٍ من كتاب الدَّعوات وقال: (باب ما يقول إذا أصبح) وذكر الحديث؛ وفي هذا دلالة على أنَّ الإمام البخاريَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أنَّ في قوله ﷺ «**سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ** ...» إلى آخر الحديث دلالة على أنَّ هذه الصِّيغة المذكورة في هذا الحديث هي أفضلُ صيغ الاستغفار وأكملُها.

وعندما نقف على معاني الحديث، وما اشتمل عليه من الأمور الجامعة في الدُّعاء والخضوع والتَّذلُّل والانكسار والافتقار؛ والاعتراف بفضلِ الله ونعمته؛ وأنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا هو؛ نتبيَّن أنَّ هذه الصِّيغة المذكورة في هذا الحديث صيغة عظيمة جامعة استحقَّ بها أن يوصَف هذا الاستغفار بأنَّه سيِّد الاستغفار، كما وصفه بذلك الرَّسول الكريم ﷺ.

وليس لشدَّاد رضي الله عنه في «صحيح البخاري» غير هذا الحديث ـ وهذه فائدة حديثيَّة ـ، وانفرد بإخراجه البخاريُّ إذ لم يخرِّجه مسلم، وأخرجه بعضُ أهل «السُّنن» مثل النَّسائي والتِّرمذي بألفاظٍ فيها أيضًا دلالةٌ على أهميَّة تعلُّم هذا الاستغفار؛ ففي رواية للتِّرمذي[1] يقول النَّبيُّ ﷺ: «**أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى سَيِّدِ الِاسْتِغْفَارِ؟**»، وفي رواية للنَّسائي[2] يقول ﷺ: «**تَعَلَّمُوا سَيِّدَ الِاسْتِغْفَارِ**» ففي هذا الحثُّ على تعلُّمِ هذه الصِّيغة العظيمة في الاستغفار لله جلَّ وعلا.

وقد رُوِيَ الحديثُ بألفاظٍ أُخرى مقارِبةٍ لهذا اللَّفظ، من حديث أبي هريرة وابن عمر وابن مسعود وابن أبزى وبريدة، رضي الله عنهم، لكنَّ الصِّيغةَ الَّتي ذكرناها وأوردناها والَّتي جاءت من حديث شدَّاد بنِ أَوْس هي الصِّيغة الَّتي أخرجها

(١) برقم (٣٣٩٣)، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (١٧٤٧).

(٢)في «الكبرى» برقم (١٠٣٠١ـ١٠٣٠٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

البخاريُّ في «صحيحه»، فينبغي علينا أن نُعنى أوَّلًا بحفظ هذا الدُّعاء الَّذي وصفه النَّبيُّ ﷺ بأنَّه سيِّد الاستغفار، ثم نواظب على الإتيان بها في كلّ صباح ومساء، مع العناية بفهم معانيه والوقوف على مقاصده ومراميه.

يقول بعضُ أهلِ العِلْم[1] في بيان وجه هذه الأفضلية: لَّما كان هذا الدُّعاء جامعًا لمعاني التَّوبة أطلق عليه سيِّد الاستغفار، ومعنى كونه سيِّدَ الاستغفار: أنَّ هذا اللَّفظ أكثر الألفاظ المستعملة نفعًا.

وفيما يلي وقفة مع معاني هذا الاستغفار:

قول النَّبيِّ ﷺ في أوَّل الدُّعاء «**أَنْ يَقُولَ العَبْدُ: اللَّهُمَّ**...» هذه الكلمة معناها بالاتِّفاق: أي يا الله؛ وهي تَرِدُ

---

(١) ذكره الطِّيبي رحمه الله؛ انظر: «فتح الباري» (١١/ ١١٩)، و«نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار» (ص ١٤٩)، و«مرعاة المفاتيح» (٨/ ٣٣).

كثيرًا في الأدعية الواردة في كتاب الله وفي سنَّة النَّبيِّ ﷺ.

يقول ابن القيِّم رحمه الله[1]: «ولا خلاف أنَّ لفظة (اللَّهمَّ) معناه: يا الله؛ ولهذا لا تُستعمل إلَّا في الطَّلب، فلا يُقال: اللَّهمَّ غفور رحيم، بل يُقال: اللَّهمَّ اغفر لي وارحمني».

وقوله: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ**» فيه الجمع بين التَّوحيدين: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد الإرادة والطَّلب؛ فإنَّ التَّوحيد الَّذي أُمِرْنَا بتحقيقه والإتيان به وتكميلِه ينقسِمُ كما بيَّن أهلُ العلم إلى قسمَين: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في الإرادة والطَّلب.

أمَّا توحيد المعرفة والإثبات فهو متعلِّق بالإقرار بربوبيَّة الله، والاعترافِ بأنَّه الخالق الرَّزاق المُنعِم المتصرِّف المدبِّر لشؤون خلقِه كلِّها، والإقرار كذلك بأسمائه وصفاته الواردة في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ، فتوحيدُ المعرفة والإثبات يشمل

(١) «جلاء الأفهام» (ص: ١٤٣).

توحيد الرُّبوبيَّة وتوحيد الأسماء والصِّفات؛ لأنَّ المطلوبَ فيهما الاعترافُ والإقرارُ لله بذلك، الاعترافُ له بالرُّبوبيَّة، توحيد الله بأفعاله، كالخلق والرَّزق والإنعام والإحياء والإماتَة والتَّصرُّف، ونحو ذلك، والاعتراف له بأسمائه الحسنى وصفاته العُليا.

وأمَّا القسم الثَّاني فهو توحيد الإرادة والطَّلب، وهو توحيد العبادة، إخلاص العبادة كلِّها لله وحده.

فهذا الحديث جمع بين هذين التَّوحيدين، فقوله: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي**» ثمَّ قولُه «**خَلَقْتَنِي**» هذا توحيد المعرفة والإثبات، الإقرار لله بالرُّبوبيَّة، وأنَّه وحده الخالق، لا خالق إلَّا الله، وقوله «**لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»، ثمَّ قولُه: «**وَأَنَا عَبْدُكَ**» هذا توحيد الإرادة والطَّلب، إخلاص الدِّين لله ﷻ.

فبدأ هذا الدُّعاء بالجمع بين هذين التَّوحيدَيْن اللَّذَيْن هما أصل الأصول وأهمُّها، والعنايةُ بهما مقدَّمَةٌ على العناية بكلِّ أمرٍ.

ثمَّ في قوله «**خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ**» دلالةٌ على مسألة يقرّرُها أهلُ العلمِ، وهي أنَّ توحيد الرُّبوبيَّة مستلزم لتوحيد الألوهيَّة، فإذا أقرَّ العبد بأنَّه لا خالق إلَّا الله فعليه ألَّا يَعبُدَ إلَّا الله، فكما أنَّه لا شريكَ له في الخَلق فلا شريك له في العبادة، ولهذا قال في الحديث «**خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ**»، كما أنَّه لا خالق لي غيرُك فلا معبود لي سواك، أنتَ وحدك تفرَّدت بخَلقي ورِزقي وإحيائي وإماتَتي، فأنا لا أعبدُ إلَّا أنت، فلا أخضع ولا أذل ولا أدعو ولا أستغيث إلاّ بك وحدك، فأنت الذي أوجدتني من العدم.

أمَّا أن يعترف بأنَّه لا خالق إلَّا الله، ولا رازق إلَّا الله، ولا مُنعم إلَّا الله، ولا مدبِّر لشُؤون الخَلق إلَّا الله، ثمَّ يذهب ويدعو قبر فُلان وفُلان! ويستنجد بضريح ميت فانٍ! فأينَ هذا من التَّوحيد! فالَّذي يعترف بأنَّ اللهَ وحدَه الخالقُ عليه أن يعبُدَ الله وحده، ولهذا جاء هذا المعنى في القرآن كثيرًا، أي

ذكر الرُّبوبيَّة والخَلق والرِّزق والإحياء والإماتة والاستدلال بها على الألوهيَّة ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء: ٩٢] يعني كما أنَّه لا ربَّ لكم سواي فلا معبود لكم غَيري، ويقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [سورة البقرة]، فقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ الخطاب هنا لمن جعل لله الأندادَ والشُّركاء، يقول ابن عبَّاس رضي الله عنه وغيره: «لا تَجْعلوا لله شركاء في العِبادة وأنتُم تعلمون أنَّه لا خالقَ لكم غير الله»[1].

ولهذا يُعابُ أشدّ العيب مَن يدعو غير الله، ويستغيثُ بغير الله، ويلجأ إلى مَنْ لا ينفعُه ولا يضرُّه، ويَدَعُ الخالق

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤٨٦)، وابن أبي حاتم «تفسيره» (٢٢٩).

الرَّازق النَّافع الضَّار المنعم المتصرِّف في شؤون خلقِه كلِّها.

وعندما تنظر ـ وهذا واقعٌ مؤسفٌ ـ لحال بعضٍ من ينتَمي إلى الإسلام في هذا الزَّمان، تجده يقرُّ بأنَّه لا خالق إلَّا الله، بل ويقول «**لا إله إلَّا الله**»، ومع ذلك تجده عند الأضرحة والقبور؛ قبر البَدوي، وقبر زينب ونَفيسة، ونحو ذلك، يذبح وينذر ويستغيثُ ويدعو ويطلبُ ويسأَلُ وينكسرُ ويَذلُّ، يقدِّم هذه العبادات لتلك القبور الَّتي لا تملك له ضرًّا ولا نفعًا ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الإسراء]، ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾[سبأ: ٢٢ـ٢٣]، وينسى أو يجهل أن الَّذي يُدعَى ويُسأَل ويُستغاث به، ويُتوكَّل عليه، ويُعبَد هو الله وحده الخالق؛ فهذه مسألة

نفيسة وعظيمة وشريفة أرشدَ إليها هذا الحديثُ العظيم.

وقوله في الحديث: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**» فيه الاعترافُ والإقرارُ لله بالألوهيَّة. وهذه الكلمة العظيمة الَّتي بُدئ بها هذا الحديث هي الَّتي خُلقت من أجلها الخليقةُ، وقامت لأجلِها السَّماوات والأرض، وأوجِدت الجنَّة والنَّار، وانقسم النَّاس إلى قسمين: أهل سَعادة وأهل شَقاوة، أهل جنَّة وأهل نار، فأهل هذه الكلمة هم أهل الجنَّة، وتاركوها هم أهل النَّار، فبُدِئَ بهذه الكلمة العظيمة الَّذي هذا شأنُها.

وقد بيَّن أهل العلم أنَّ هذه الكلمة لا تنفع قائلَها إلَّا إذا اسْتَتَمَّ شروطَها الواردة في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ كما قال النَّاظم[1]:

وبـشـروط سـبـعـة قـد قـيِّدتْ
وفي نصوص الوحي حقًّا وردتْ

(١) هو العلَّامة حافظ بن أحمد الحَكَمي في منظومته «سُلَّم الوصول».

فــإنَّــه لا يـنـتـَفع قـائـلـُـها

بالـنـُّطـق حـتَّـى يـستـكـمِـلَها

الـعـلـمُ والـيـقـينُ والـقــبـولُ

والانــقـيـادُ فــادرِ مــا أقــول

الـصِّـدقُ والإخـلاصُ والمـحبَّهْ

وفَّـــقَـــك الله لَمـــا أحـــبـــَّـه

أشار في هذا النَّظم إلى سبعة شروط عظيمة لـ «**لا إله إلَّا الله**» قامت عليها الدَّلائل الكبيرة في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ، وليس هذا محلُّ بسطِها وذكر أدلَّتها[١].

ثمَّ قوله في الحديث «**وَأَنَا عَبْدُكَ**»: الاعتراف لله بالعبوديَّة والخلق عبادُ الله، وعبوديَّة الخلق لله نوعان: عبوديَّة لربوبيَّته، وعبوديَّة لألوهيَّته.

(١) انظرها مبسوطة بذكر شواهدها وأدلتها في كتاب «معارج القبول» لناظم الأبيات.

عبوديَّة لربوبيَّة الله: بمعنى أنَّ الخلق كلَّهم اللهُ أَوْجَدَهم وخَلَقَهم ويَرزقهم ويُحييهم ويُميتهم، لا شريكَ له في ذلك ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [سُورَةُ مَرْيَمَ]، فهذه العبوديَّة لا يخرج عنها مخلوق، كلُّ مخلوق عَبْدٌ لرُبوبيَّة الله؛ لأنَّ الله هو الَّذي أوجدَه وخلقَه ورزقَه ويحييه ويميتُه.

والقسم الثَّاني: عبوديَّة لألوهيَّته، وهذه خصَّ الله بها بعض خلقِه الَّذين وفَّقهم للإيمان وهداهم لطاعة الرَّحمن، فهؤلاء عبادٌ لألوهيَّته يَخضعون له ويُطيعونه، وينقادون لشَرعه ويمتَثِلون أَمْرَه، ويطيعون رُسُلَه، فهذه عبوديَّة لألوهيَّة الله، وهي خاصَّة لبعض الخَلق؛ الأنبياء وأتباعهم، ولهذا أضافَهم الله إلى نفسِه إضافة تشريف وتكريم في مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفُرْقَانِ: ٦٣]، فهؤلاء بعضُ خَلق الله الَّذين اهتَدوا، ولزمُوا عبادةَ الله وطاعتَه، والانقيادَ لشرعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والظّاهر أنَّ المقصود بقوله: «**وَأَنَا عَبْدُكَ**» في الحديث العبوديَّةُ لألوهيَّة الله؛ لأنَّ العبوديَّة لربوبيَّة الله أشار إليها في الحديث بقوله: «**خَلَقْتَنِي**»، وبقوله: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي**»؛ فقوله: «**أَنَا عَبْدُكَ**» أي: عابدٌ لك، ومطيعٌ لك، ومُمْتَثِلٌ أَمْرَكَ، ومنقادٌ لشَرعك.

ثمَّ قوله: «**وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ**» ذكر فيها أهلُ العلم بعضَ المعاني، فقالوا: يريد بقوله: «**وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ**»: أي عاهدتُّك ووعدتُّك أن أَلتزمَ بالإيمان والعبادة والانقياد لأمرك، فأنا على ذلك مقيمٌ ما استطعت، ملتزمٌ بذلك قَدْرَ استطاعتي، ولا يكلِّف الله نفسًا إلَّا وُسْعَهَا. فالعبد الَّذي قال «**أَنَا عَبْدُكَ**» هذا مُمْتَثِلٌ منقاد، قد عاهد اللهَ وواعده على لُزوم الإيمان والاستقامة على طاعته، والعبدُ في كلِّ صلاة، بل في كلِّ ركعة يُعاهد اللهَ على إخلاص العبادة له ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾

[سُورَةُ الفَاتِحَةِ]، وهذا وعدٌ وعهد أن تَعْبُدَهُ ولا تعبد غيرَه، وأن تستعينَ به ولا تستعين بغيره.

ويقول بعضُ أهل العلم: يُحتمل أنَّ المعنى أنِّي مقيمٌ على ما عَهِدتَّ إِلَيَّ من أَمْرِك ومتمسِّكٌ به ما استطعتُ، فالله عهد إلينا أن نلتزمَ بالإيمان، أمرنا بذلك ودعانا إليه، فهذا العبد بهذا الدُّعاء يقول: اللَّهمَّ إنِّي ملتزمٌ بما عهدتَّ إلينَا من الإيمان، ملتزمٌ أن أقومَ بذلك وأنقادَ قدر استطاعتي.

ثمَّ في قوله: «**مَا اسْتَطَعْتُ**» تقييدٌ ذلك كلَّه بالاستطاعة، يعني قدْرَ استطاعتي، وهذا من رحمة الله جلَّ وعلا لأمَّته.

يقول بعضُ أهلِ العلم في قول النَّبيِّ ﷺ في هذا الحديث «**مَا اسْتَطَعْتُ**»: اشتراط الاستطاعة فيه الاعترافُ بالعَجز والقصورِ، أنا لا أستطيع أن أكمِّلَ الإيمانَ وآتيَ به على أعلى مراتبِه وأَتَمِّ مقاماتِه، أعترفُ بعَجزِي وقُصوري، فلا تؤاخذني على عَجزي وضَعفي وقُصوري، وقد قال الله

تعالى في القرآن الكريم: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وجاء في الحديث أنَّ الله تعالى قال: «**فَعَلْتُ**»(١) وجاء عن النَّبيِّ ﷺ في الحديث الصَّحيح أنَّه قال: «**إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، ومَا نَهَيْتُكُم عَنهُ فَانتَهُوا**»(٢).

وفي هذا نكتةٌ بيَّنها أهلُ العلم، لَمَّا ذكر الأمر قيَّده بالاستطاعة؛ لأنَّ بعضَ الأوامر قد لا يستطيع أن يقومَ بها الإنسان، أو قد يستطيعُ أن يقوم بها لكن لا يستطيعُ أن يكمِّلها، فعُلِّق فعلُ الأمر بالاستطاعة، لكن لَمَّا ذكر النَّهي قال: «**ومَا نَهَيْتُكُم عَنهُ فَانتَهُوا**» لم يقل: ما استطعتُم؛ لأنَّه كما قال العلماءُ: النَّهيُ تركٌ، والتَّركُ مُستَطاعٌ لكلِّ أحد، يعني عدم الزِّنى، وعدم السَّرقة، وعدم القتل، ونحوها منَ الأمور

---

(١) رواه مسلم (رقم ١٨٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (٢٣٨٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الَّتي نهى الله عنها مُستطاعٌ لكلِّ أحد، فلا أحد يقول: لا أستطيعُ أن أتركَ شيئًا من هذه الأمور، إذ لا يقولُ ذلك إلَّا من كان عنده فسادٌ وهوًى في فعل المعصية ـ والعياذ بالله ـ، ولهذا لم يعلَّق التَّركُ بالاستطاعة.

فقوله: «**مَا اسْتَطَعْتُ**» إعلامٌ للأمَّة أنَّ أحدًا لا يقدِرُ على الإتيان بجميع ما يَجِبُ عليه لله، ولا الوفاء بكمال الطَّاعات والشُّكر للنِّعم، فرفَق اللهُ بالأمَّة، ولم يكلِّفهم من ذلك إلَّا وُسْعَهم، فيجتهد العبد ويكون صادقًا مع الله في ذلك، في فعل الطَّاعات والقيام بشُكر النِّعمة وتحقيق الإيمان قدر استطاعتِه، والله يعلمُ خائنةَ الأعين وما تُخفي الصُّدور.

ثمَّ قوله في الحديث: «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي**» معنى «**أَبُوءُ**»: أي أعترَف وأقرُّ، أي: أعترَفُ وأُقرُّ لك بنعمتك عليَّ، وأعترَف وأقرُّ بذنبي، ففيه الجمع بين مشاهدة المنّة ومطالعة عيب النّفس والعمل، ومشاهدة المنّة

توجب المحبّة والشّكر لولي النّعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كلّ وقت، فلا يرى ربّه إلا محسناً متفضِّلاً، ولا يرى نفسه إلا مذنباً مقصِّراً.

وقوله: « **بِنِعْمَتِكَ** » فيه اعترافٌ بجميع نِعم الله؛ لأنّ النعمة مفرد مضاف، والقاعدة أن المفرد إذا أضيف عمّ، فلم يقيِّد الاعتراف بذكر نعمة معيَّنة، بل أطلق، قال: «**بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ**» ومعنى ذلك: أعترف وأقرُّ لك بكلِّ نعمة أنعمتَ بها عليَّ، والنِّعم كلُّها من الله سبحانه وتعالى، هو مُسْدِيها ومُوليها ﷻ ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣]، فالنِّعم كلُّها منَ الله، وقولُ العبد في هذا الدُّعاء: «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ**» اعترافٌ منه بجميع نِعم الله؛ نعمة الإيمان، نعمة العافية، نعمة الولد، نعمة الزَّرع، نعمة البيت، إلى غير ذلك من النّعم، وما بالعبد من نعمةٍ فهي منَ الله ﷻ،

والاعتراف بذلك موجبٌ ومقتضٍ لشُكر الله ﷻ على النِّعم، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [سُورَةُ إبراهيم]، فإذا اعترفَ العبد بأنَّ النِّعمة من الله وحده لا شريكَ له فيها، عليه أن يَشكُرَه عليها بقلبه ولسانِه وعملِه، فيعترف أنَّها منَ الله، ويحمد الله ﷻ عليها، ويصرِفُ النِّعمة في طاعة الله، لا يصرفُها في معصية الله، هذا مقتضى الاعتراف والإقرار بأنَّ الله سبحانه وتعالى أسدى إليه النِّعمة وتفضَّل عليه بها.

وقوله: «**أَبُوءُ بِذَنْبِي**» يعني: أقرُّ وأعترفُ بذنبي، ذكر أهل العلم في هذا معنيين:

المعنى الأوَّل: أعترفُ بذنبي بعدم قيامي بشُكر نعمتِك على الوجه الأكمل؛ لأنَّها ذُكرت بعد قوله: «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ**» أي أعترف بأنِّي مقصِّرٌ في شكر نعمتِك.

والمعنى الآخر: اعترافٌ بوقوع الذَّنب مطلقًا، يعني: أبوءُ بذنوبي، وبمعصيَتي، كلِّ معصية وقعت منِّي، فاعتراف العبد بأنَّه مُذْنبٌ ومُقصِّرٌ في حقِّ الله، هذا أوَّل طريق في التَّوبة، أن يعترف بتقصيره، لكن إذا كان يُذنب ويَعصي ويرتكب الموبقات، ثمَّ لا يشعر ولا يُحسُّ بأنَّه مُذْنب أو مقصِّر، فهذا التَّوبة منه بعيدة، إلَّا إذا هُدِيَ إلى أسبابها، وَوُفِّق إلى طريقها.

فهذان معنيان في قوله في هذا الحديث «**وَأَبُوءُ بِذَنْبِي**» ولعلَّ الأقرب منهما الثَّاني؛ لأنَّ الاعتراف بالتَّقصير ووقوع الذَّنب منه مَدْعاة للاستغفار وملازمته، وهذا لبُّ الحديث ومقصوده.

ثمَّ في قوله: «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي**» إشارةٌ إلى أمرٍ ذكره أهل العلم، وهو أنَّ العبد في هذه الحياة في صباحِه ومسائه يتقلَّب بين أمرين: نعمةٌ حادثةٌ من الله ﷻ

وهي محتاجةٌ إلى شُكرٍ، أو ذنبٍ يقع فيه لتَقصيره فهو محتاج إلى استغفار، والحديث جمع بين الأمرين، ولهذا قال بعض السَّلف: «إنِّي أُصْبِحُ بين نعمةٍ وذنبٍ، فأريدُ أن أُحْدِثَ للنِّعمة شكرًا، وللذَّنب استغفارًا»[1].

ثمَّ فائدةٌ عظيمةٌ تؤخَذ من هذا الحديث، وهي أنَّ مَن اعترف بذنبه وتابَ تابَ الله عليه، مهما كان الذَّنب، إذا اعترف العبد، وقال: أنا مذنبٌ، أبوء وأعترف بذنبي، فاغفر لي، فإنَّه لا يغفر الذُّنوب إلَّا أنت، فإذا حصل هذا من العبد؛ غفر الله له؛ فمَن جمع بَيْن هذَيْن الأمرين غُفرَت ذُنوبُه؛ وهذا المعنى الَّذي أُشيرَ إليه في هذا الحديث جاء صريحًا في حديث آخر، في حديث الإفك الطَّويل، وموضع الشَّاهد منه قوله: «**فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»[2] هذا

(١) ذكره ابن تيميَّة في «جامع الرَّسائل» (١/ ١١٦)، وابن القيِّم في «طريق الهجرتين» (١٧٠).

(٢) رواه البخاري (٢٦٦١، ٤١٤١)، ومسلم (٤٩٧٤) عن عائشة رضي الله عنها.

المعنى أُشيرَ إليه في هذا الحديث العظيم.

ثمَّ قوله في ختام الحديث: «**فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»: في هذا الاعتراف بأنَّ الله وحده هو الَّذي يغفر الذُّنوب، وهو الَّذي يقبل التَّوبةَ عن عباده، ولهذا يتوجَّه العبدُ بالتَّوبة والاستغفار والإنابة وطلب العَفو من الله وحده، فإنَّه لا يغفر الذُّنوبَ إلَّا الله. قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ومن فوائد الحديث، أنَّ فيه جمعًا بين مسألتين عظيمتين وهما **التَّوحيد والاستِغفار**، فهاتان المسألتان أعظم المسائل وأهمُّها، وقد جمع هذا الحديث بينهما ، كما جاء الجمع بينهما في نصوصٍ كثيرة في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ منها قول الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ]، فهذه الآية الكريمة جُمِع فيها بين التَّوحيد والاستغفار،

وكذلك حكى الله عن ذي النُّون أنَّه ﴿نَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [سُورَةُ الأَنبِيَاءِ] وجُمع أيضا بين التَّوحيد والاستغفار في قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فُصِّلَتْ : ٦]، وهكذا نصوص كثيرة يُجمع فيها بين توحيد واستغفار من الذُّنوب، «فشهادةُ أن لا إله إلاَّ الله بصِدق ويقين تُذهبُ الشركَ كلَّه، دقَّه وجلَّه خطأه وعمده، أوَّلَه وآخرَه، سِرَّه وعلانيتَه، وتأتي على جميع صفاتِه وخفاياه ودقائِقه، والاستغفار يمحو ما بقي من عثراته، ويَمحو الذنبَ الذي هو من شُعب الشرك، فإنَّ الذنوبَ كلَّها من شعب الشرك، فالتوحيد يُذهبُ أصلَ الشرك، والاستغفار يمحو فروعَه، فأبلغ الثناء قولُ لا إله إلاَّ الله، وأبلغُ الدعاء قول أستغفر الله»[1].

وقد جمع بينهما في هذا الحديث العظيم حديث (سيِّد

(١) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٩٦ ـ ٦٩٧).

الاستغفار).

وختامًا؛ فإنّ هذا الحديث العظيم قد اشتمل على معانٍ عظيمة ومقاصد جليلة استحقَّ بها أن يُوصَف بأنَّه سيِّد الاستغفار:

١ـ ففيه الإقرار لله وحده بالإلهيَّة والعبوديَّة.

٢ـ وفيه الاعتراف بأنَّه الخالق.

٣ـ وفيه الإقرار بالعَهد الَّذي أخذه الله على عباده.

٤ـ وفيه الرَّجاء بما وعَدهم به.

٥ـ وفيه الاستعاذة من شرِّ ما جنى على نفسه.

٦ـ وفيه إضافةُ النِّعم إلى مُوجدها ومُسديها، وهو الله وحده.

٧ـ وفيه إضافةُ الذَّنب ووقوع الخطأ إلى نفسه.

٨ـ وفيه رغبة العبد بالمغفرة واعترافه بأنَّه لا يقدر أحدٌ على ذلك إلَّا هو سبحانه.

قال ابن القيم رحمه الله: «فتضمّن هذا الاستغفار الاعتراف من العبد بربوبية الله وإلهيته وتوحيده، والاعتراف بأنه خالقه العالم به، إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقّه وتقصير فيه، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته لا مهرب له منه، ولا وليَّ له سواه، ثم التزام الدخول تحت عهده ـ وهو أمره ونهيه ـ الذي عهده إليه على لسان رسوله، وأنّ ذلك بحسب استطاعتي لا بحسب أداء حقّك، فإنه غير مقدور للبشر وإنما هو جَهْد المقِلّ وقدر الطاقة، ومع ذلك فأنا مصدِّق بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب فأنا مقيم على عهدك مصدِّق بوعدك، ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شرِّ ما فرَّطتُ فيه من أمرك ونهيك، فإنك إن لم تُعِذْني من شرِّه وإلا أحاطت بي الهلَكَةُ؛ فإنّ إضاعةَ حقِّك سببُ الهلاك، وأنا أُقِرُّ لك وألتزم بنعمتك عليَّ، وأقِرُّ وألتزم

وأَبْخَعُ بذنبي، فمنك النّعمة والإحسان والفضل، ومني الذنب والإساءة فأسألك أن تغفر لي بمَحْوِ ذنبي وأن تُعْفِيني من شرِّه إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت؛ فلهذا كان هذا الدُّعاءُ سيِّدَ الإستغفار وهو متضمِّنٌ لمحض العبوديَّة»[1].

فينبغي أن نعتنيَ بهذا الحديث، وأن نحافظ عليه، وأن نجعلَه في أذكارنا صباحًا ومساءً، فنحفظ لفظه تمامًا، والأفضل أن نحفظ اللَّفظة الَّتي أوردناها، وهي في «صحيح البخاري»، نحفظ هذه اللَّفظة ونقولها في الصَّباح بعد صلاة الفجر، وفي المساء إمَّا قبل الغروب أو بعد الغروب.

وأسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم، بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، أن يرزقنا إعانة على القيام بهذا الذِّكر، وبكلِّ ذكر وطاعة.

---

(١) «مدارج السَّالكين» (١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢).

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك وأنعم على عبد الله ورسوله نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم[1].

---

(١) أصل هذه الرِّسالة محاضرة، وأجريت عليها ما تيسر من تعديل، مع بقاء الأسلوب الإلقائي في الغالب، وبالله وحده التَّوفيق.